مراكـــش
بين الحاضر والمستقبل

للأســـتاذ عبد المجيد بن جلون

لم يكن الفرنسيون يقدرون تمام التقدير الحركة الوطنية فى مراكش قبل الحرب الأخيرة. كانوا ينظرون إليها على أنها أحلام مزخرفة تتراءى لجماعة من الشبان بعيدة كل البعد عن الوقائع والمحسوسات؛ وكانوا يقولون إن هناك هوة سحيقة بين هذه الجماعة من الشبان وبين بقية الشعب، ولذلك ظلت الحركة الوطنية فى جزر ومد إلى أن كانت سنة ١٩٣٧ حينما اغتالت السلطة الفرنسية هذه الحركة وشردت زعماءها فى المنافى والسجون.

ولكن الحركة الوطنية فى مراكش كانت قد آتت ثمارها فى نفوس الشعب قبل هذا التاريخ، ولذلك فإن مظهر الشلل الذى أصابها بعد ذلك لم يكن له أى اتصال بالجوهر والصميم. كان من العوارض التى تنزل بالأمم عندما تصاب بالنكبات القاصمة، فتذهلها فترة من الزمن عن إيمانها، ولكنها لا تخنق فيها نبض الحياة متى كان للحياة نبض فى أعماقها. حتى إذا استأنس الشعب بالنكبة وألفها، بدأ إيمانه يستيقظ فى شكل همس ثم فى شكل صوت ثم فى شكل جلجلة مدوية.

وهذا ما حدث فى مراكش بالضبط: تظاهر ضدها الموت والجوع والحرب والاضطهاد، وبالرغم من ذلك استطاعت أن تواصل كفاحها السياسى، وأن تتقبل كل التهم التى وجهت إليها كما تتقبل العذراء البريئة تهم الافك والبهتان. بل — استطاعت فى خلال الحرب ذاتها أن تخوض فى صمت وجلد، وهى بعيدة كل البعد عن الضمير العالمى، معركة استقلالية دامية، وجه الفرنسيون خلالها نحو قلب هذه البلاد الباسلة كل ما يملكون من حديد ونار، دون أن يستطيعوا إخماد النبض فيه. وإذن فالمسألة ليست مسألة شيبة حالة، وإنما هى مسألة نظام بال تتقادم عليه الدهر وتزعزع. إنها الأخطاء الفرنسية بدأت تؤتى ثمارها الكريهة المسمومة. إنه الشعور بالذات فى أمة لم تصمم على الاستمساك بالحياة فحسب، بل صممت أيضاً على أن تعيش حياة — حرة كريمة تختلف كل الاختلاف عن الحياة التى عرفتها منذ ثلث قرن مضى فى ظل الحماية الفرنسية.

السابق من مقال له عنوانه: « مكانة الشريعة الإسلامية فى الفقه الحديث ».

« ليست مظاهر استقلال الفقه الإسلامى وتفوقه محصورة فى القواعد المدنية والأحوال الشخصية... ولكنها تبينت كذلك فى عدة مواضع من التشريع الجنائى الإسلامى » ... ثم قال:

« إن الشريعة الإسلامية تشمل من مبادئ العقوبة ونظمها ما لا يقل فى سعة النطاق وفى تهذيب الفكرة عن أحدث المبادئ والنظم الوضعية، ومنها ما لم يكن له مثيل فى نظم العقوبات الرومانية، ومن هذه النظم نظام الحسبة فى الشريعة الإسلامية، وهى وظيفة اجتماعية فى العصر القديم تقابل وظيفة النيابة العمومية فى العصر الحديث. ومنها كذلك نظام العقاب بالتعزير، وهو أن يترك تحديد العقوبة — نوعاً ومقداراً — إلى تقدير القاضى يحكم بها تبعاً لما يتضح لديه من ظروف كل جريمة، وحالة المجرم ونفسيته ودرجة ميله إلى الإجرام، وهو نظام تمتاز به الشريعة الإسلامية على الشرائع الأخرى، وينادى به كبار العلماء الجنائيين فى العصر الحديث، حتى تكون العقوبات محققة للغاية من تشريعها ».

١٤ — ثم جاء قرار المؤتمر الدولى للقانون المقارن الذى انعقد بلاهاى فى أوائل أغسطس سنة ١٩٣٧ م — مظهراً فضل هذه الشريعة ورسوخ قدمها وعلو كعبها، وهو الذى جمع أقطاب القانون وأعلام الشرائع فى العصر الحاضر — وخلاصته أن الشريعة الإسلامية حية صالحة للتطور ومسايرة المدنية الحديثة، وأنها لذلك جديرة بأن تشغل مكانة ممتازة بين مصادر القانون المقارن ».

وبذلك أحرزت الشريعة الإسلامية قصب السبق، وفازت فوزاً عظيماً، واعترف بمجدها الخالد الغربيون.

حسن أحمد الخطيب

ظلت فرنسا طيلة مدة الحرب تقريباً مهددة فى كيانها ، فشككها ذلك فى تلك السياسة العتيقة التى كانت تسير عليها فى الشمال الأفريقى ، وظهر لأول مرة فى الأحزاب الفرنسية من ينادى بما يسمى تارة إعطاء الحقوق أو عدم الاضطهاد أو المساواة بين سكان جميع الأراضى الخاضعة أو التابعة لفرنسا . وبدأت تظهر نتائج هذه الأفكار بالنسبة لمراكش ، فاطلق سراح الزعماء الذين قلنا عنهم فيما مضى إن فرنسا اغتالت الحركة التى كانوا قائمين بها سنة ١٩٣٧ ، وعلى رأسهم الأستاذ محمد علال الفاسى بطل حوادث تلك السنة . وظهرت كذلك فى الوسط الحكومى أفكار نيرة كانت تعد إلحادا قبل الحرب الأخيرة ، فبدأ الناس يقرأون فى البلاغات الرسمية ويسمعون فى الدوائر الحكومية عن حقوق الشعب والرخاء العام ، والعمل للمستقبل ، ومحاربة الجهل والفقر والجوع ... الخ . وهذا شىء جديد بالنسبة لما قبل الحرب فى مراكش

وهكذا اعتقد الناس أن الطريق نحو المستقبل قد بدأ يلوح أمام هذه الأمة التى ضلت تلك الطريق منذ زمن ليس بالقصير . بيد أنه يظهر أن الفرنسيين لم يستطيعوا أن يتخلصوا نهائيا من تلك الأفكار العتيقة التى كانوا يسوسون امبراطوريتهم على ضوئها . وبالرغم من أنه لم تمر سوى بضعة شهور على هذا الاتجاه الجديد فى السياسة الفرنسية فقد بدأ يظهر فى أفقها نوع من التردد الواضح ، وما يدل على أن الفرنسيين لا يزالون بعيدين عن الإيمان العميق بتلك الأفكار الجديدة التى دفعتهم إليها الحرب الأخيرة .

ومصدر هذا التردد هو أن الفرنسيين اعتقدوا أن سياسة اللين أجدى على الأمبراطورية من سياسة العنف ، أى أن هدف اللين اليوم هو نفس هدف العنف بالأمس . ودليلنا على ذلك هو أن مشروع الوحدة الفرنسية الذى أشارت إليه المادة ٤١ من الدستور الذى خذله الفرنسيون فى الانتخابات الأخيرة ، لم يقم أى وزن لآراء هذه البلاد ولم يوص باستشارتها بل فرضها فرضاً ؛ فهو مشروع فرنسى من فرنسا وإلى فرنسا .

أضف إلى ذلك أن سفير فرنسا ومقيمها العام الجديد فى مراكش ، وهو الذى أرسلته حكومته لانتهاج خطة جديدة فى هذه البلاد التى أنهكتها القلاقل — أعلن برنامجا سياسيا إعتبره المراكشيون ضربة لآمالهم فى الصميم ، ووصفوه بأنه تماد مع سبق الأصرار فى فرض الحماية والأغراق فى تنفيذها ، هذه الحماية التى حاربوا طول مدة ثلث قرن فى سبيل القضاء عليها . والبرنامج يتحدث عن السنين البعيدة المقبلة مقرونة بالحماية وما سوف تقوم به فى المستقبل من أعمال ، ولم يشر البرنامج أية إشارة إلى الإصلاح السياسى أو إعادة النظر فى المعاهدة ، بل اكتفى بالإشارة إلى الإصلاحات المادية المختلفة ناسيا أن يذكر أن الحماية الفرنسية كانت مصدراً رئيسياً لكل هذه الويلات التى تعانيها مراكش ، والتى يظهر أن الفرنسيين لا يفهمونها ، فإن من الواضح بعد هذه التجربة الطويلة أنه لا يمكن القيام بأى إصلاح فى هذه البلاد ما دامت الحماية قائمة ، بل يرجح القارئ أن واضع البرنامج لم يسمع شيئا عن مشروع الوحدة الفرنسية ؛ فهو مهما يقل فيه اعتراف صريح بأن النظام القائم الآن لم يعد صالحاً وكأنه لم يسمع شيئاً أيضاً عن تاريخ مراكش خلال ثلث القرن الأخير .

وإذن فنحن لا نتردد فى القول بأن مستقبل مراكش ما يزال محفوفا بالأخطار ، وإن الابتسامة الحاضرة هى صرف للنظر أو تخدير للأعصاب . هى كسب للوقت بالنسبة لفرنسا وإضاعة للوقت بالنسبة لمراكش ، ولكن الذى يسرنا أن نعلنه هنا هو أن حزب الاستقلال المراكشى ، وهو الحزب الذى يعبر عن صوت الأمة القوى المجلجل ، قد أعلن سخطه على بوادر السياسة الفرنسية ورفض أن يتعاون مع الحكومة أو أن يهادنها ما لم تعلن صراحة أن معاهدة الحماية ملغاة . وبعد ذلك تبدأ المفاوضات بين حكومة مراكشية شرعية وبين حكومة فرنسا لعقد معاهدة جديدة بين الطرفين .

لن يقبل المراكشيون غير هذا . والظاهر إلى الآن أن فرنسا غير مستعدة للنظر فيما يشبه هذا ، وإذن فراكش ما تزال مهددة بأن يكون لها مستقبل شبيه بذلك الماضى القريب ، خصوصاً إذا لم يصل وفد حزب الاستقلال الذى يوجد الآن فى باريس مع رجال فرنسا إلى نتيجة مرضية ، ففى حاضر مراكش الآن هدوء ولكنه ربما كان الهدوء الذى يسبق العاصفة .

عبد الجبار بن عباوه